نموذجـان للمعلم

توفيق فائزي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي ـ مادة الفلسفة

يجعلنا الكلام عن المدرس أو المعلم[1]، نلتفت إلى علاقة العلم بالإنسان الذي يعلمه، والكلام عن المدرسة أو عن التعليم لا يكون فيه الالتفات إلى هذه العلاقة شديدا كما هو الأمر الآن. نود أن يكون الكلام عن تطور المعلم، أي عن انتقال حاله في أطوار. ونميز بين طورين، على الأقل، انتقل فيهما، فأصاب العلاقة المتحدث عنها سابقا أثر عظيم. طور ما قبل الدولة الحديثة وطور الدولة الحديثة وما بعدها. لكن ننبه إلى أننا نجد في تاريخ المعلم تنازع أمرين : الأمر الأول، هو نزوع المعلم لأن يكون مثالا حيا لما يبلغه، والأمر الثاني، نزوع المعلم إلى أن يكون مجرد وسيلة للتلقين، فينزع المعلم إلى أن يكون آلة تدريسية. بل إن الآلة، خصوصا في زمن الطور الأخير من تاريخ التقنية، صارت تهدد بتعويض شبه كامل للمعلم.

أتى على المعلم حين من الدهر كان نبيا أو فيلسوفا بمنزلة فيثاغورس، أو سقراط، أو أفلاطون، فكانت منزلته بمنزلة الرسالة التي كلف بتبليغها. ويمثل سقراط نموذج المعلم المبلغ لمعنى متعال، وكان المنطق (اللوغوس) الحي هو الوسيلة الفعالة للتبليغ، مما يستلزم حياة المعلم وحضوره، ولن يستطيع المكتوب بذلك أن يعوض الشفهي[2]، مما يجعل المعلم مثالا حيا لا يعوض، وقد يكون السفسطائيون ممن يمثلون النموذج المقابل، إعلاء من شأن الكتابة[3]، وهذا ما تظهره محاورة فيدر Phèdre، وفتح لمدارس في أثينا لتلقين حيل الإقناع في كل شيء حقا أم باطلا، وتقاض للأجر. وسقراط ممن يدافع عن نفسه في محاورة دفاع سقراط Apologie de Socrate، فكان من حججه أنه لا يسأل الناس أجرا، رغم أنه مبلغ للحكمة والحق.

لن نفصل الكلام في تاريخ تنازع النزوعين، ولكن نود أن نشير إلى أن الأمر مع أفلاطون تغير شيئا ما إذ اضطر إلى الكتابة، وإلى تأسيس المدرسة، وتحديد برامج، وتمييز أطوار لبلوغ الحق، رغم أن هذه تعتبر وسائل فقط، غايتها تبليغ المعنى المتعالي.

في الإسلام أو في المسيحية، ستتحدد وظيفة للمعلم، وهي نقله عن الناقل الأول. والمعلم

1- سنستعمل بدل المدرس المعلم، ولكن ليس بمعناه المتداول الآن، وتوجد أسماء أخرى، كل اسم يشير إلى صفة أو تاريخ خاصين، كالمؤدب والشيخ والأستاذ والفقيه والإمام... وفي الفرنسية والإنجليزية :
Maître, Professeur, Instituteur, Master...

2- ينظر
DERRIDA, Jacques, «***La pharmacie de Platon***», in La dissémination, Edition du Seuil, 1972.
في هذه المقالة، كشف عن كيفية تأسيس أفلاطون لمقام الكلام المنطوق الذي رفع من شأنه، ولمقام الكتابة الذي حط من شأنه.

3- التحول إلى الكتابة هو بداية التحول إلى الآلية، إذ يمكن اعتبار المكتوب آلة تشتغل بصورة ذاتية في غنى عن المتكلم، وتشغّل الآلة بمعرفة الطريقة التي عقد بها المعنى فإذا عرفنا الطريقة فككنا العقد متى شئنا وتولدت الدلالة.

الأول في الإسلام هو النبي ثم يأتي النقلة. والمعلم الأول في المسيحية هو المسيح. إن هذه الوظيفة هي التي تجعل المعلم الأول مجسدا تجسيدا حيا لما نقله، ولا يقع التباعد بين الكلمة وتجسيدها الحي فيصير المعلم أيضا مثالا حيا ونموذجا لمن بعده لا يعوض. ولذلك يكتسب الكلام المنطوق المحفوظ في الصدور قيمة مطلقة كذلك ؛ إذ ينبغي أن يكون الكلام محفوظا معناه في الصدور، ونقل المعنى المتعالي الحي يكون من صدر إلى صدر. ونجد في تاريخ الإسلام من النقلة من كان مثالا حيا للرسالة، ولم ينفصل لديه الكلام عن تجسيده الحي. ولكن هيهات، إذ تم اللجوء للكتابة وللتدوين لاحقا، مع الحرص على تبعيتهما للكلمة الحية. صارت الكلمة مكتوبة (تدوين القرآن والحديث النبوي)، واستخرجت العلوم الإسلامية المقعدة للفهم، وصارت هذه العلوم صناعات تعلم، وظهرت المذاهب، وتأسست المدارس الممثلة لها[4]. من هنا يبرز النموذج الآخر، وهو نموذج المعلم الذي يدرس هذه الصناعات قصد تحصيل الملكات المتعلقة بها. وقد شهدت هذه العلوم مرحلة اجتهاد لم تكن فيها مجرد قواعد ميتة، بل شهدت حياة عقلية، وشهدت العلوم عامة، في دور العلم، وبيوت الحكمة والخزانات، حياة عقلية، خاصة في المراكز المدنية ؛ كبغداد، والقاهرة، وقرطبة. فيها من المحاورة والمناظرة ما دل على أن تلك العلوم تحولت إلى ملكات إبداعية، وظهرت نماذج من معلمين أحكموا علوما كثيرة، أو علوما بعينها، وكانوا نموذجا حيا مجسدا لما تقتضيه تلك العلوم من القيم. ولكن كانت فترات أخرى، وتفاوت الأمر حسب البلدان، تحول المعلم فيها إلى مجرد ملقن. وصار مركز الاهتمام حفظ دون فهم، يقول ابن خلدون : «وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها، فتجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم، في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل، تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك.»[5].

نجد في تجربة التعليم هذين النموذجين : نموذج المعلم الحامل لرسالة، ولمعنى متعال، ينقله بصورة حية فيصير المعلم مثالا حيا لا يعوض، ونموذج المعلم الصناعي، الذي يروض تلامذته بالحفظ والتكرار، ولا نعني من التنبيه على هذين النموذجين الإيهام بانفصال تام بينهما، فهما يمتزجان في الشخص الواحد.

بميلاد الدولة الحديثة تتحول وظيفة المعلم، وعلاقته بما يبلغه ؛ فالعلم الذي يبلغه تحدده

4- البعزاتي بناصر، «الأفق الفكري للمدرسة المرينية»، ضمن **مؤسسات العلم والتعليم في الحضارة الإسلامية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 150، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1429 هـ ـ 2008 م، ص. 144.

5- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مطبعة نهضة مصر، يناير، 2004، ج 3، ص.927.

الدولة[6] وتصير الدولة بذلك المعلم الأول[7]، ذلك العلم يصاغ في برامج تتضمن تفصيلا لما يراد تدريسه والزمن المخصص لذلك، والأطوار التي يمر منها المتعلم. هو إعداد من المعلم لمن سيحرك آلة الدولة لغاية نقل العلم (بمعناه الحديث) والتقنية، في أطوار متقدمة والقصد هو التقدم. لم يعد العلم بمعناه القديم، بل سيصير مجموعة من المعارف والتخصصات، ويتمزق العلم أشتاتا، ويتمزق المعلم، ويصير مدرسا لتخصص أو شعبة من شعب العلم التي تزداد تشعبا. هذا، مما يؤثر تأثيرا شديدا في تحول المعلم إلى مدرس، وتحول العلم إلى صناعات تعلَّم قصد تحصيل الملكات المتعلقة بها. نعم، قد تكون الغاية هو جعل المتعلم يحصل ملكات إبداعية في تلك العلوم وهي غاية شريفة، إلا أن تجزيء العلم والالتفات في العلم إلى ما هو صناعي فيه، يقرب المتعلم من أن يكون آلة، والمدرس إلى أن يكون آلة تدريسية أكثر من أي وقت مضى ؛ إذ يزداد الأمر آلية بظهور تكنولوجيا الاتصال والإعلام الخاصة بالتعليم TICE والتي تجعل المعرفة المراد تبليغها، معرفة تعلم آليا من خلال برامج تحاكي عمليات التعليم. ويتقلص تدخل المعلم، فيصير مجرد مساعد ومرافق وموجه، ويستغنى شيئا فشيئا عن حضوره الحي ؛ فقد تتم عملية التدريس في غيابه[8].

يقترن باحتكار الدولة التعليم احتكاراً شبه شامل، احتكارُها لتعليم القيم. واستُلهِمت قيم جديدة هي قيم الحداثة أو القيم الإنسانية، خاصة في الدول التي سبقت لتأسيس الدولة الحديثة والتي قام تأسيسها على القطع مع الماضي[9]. أما التي لم يكن تأسيس الدولة الحديثة فيها مقترنا بهذا القطع، فيبقى مشكل التوافق على نظام القيم قائما[10]. وأيا كانت هذه القيم، فإنه يتهددها تحويلها إلى مجرد مادة مدرسة، أو إلى مضامين، وجزئت مهمة تدريسها، إذ يكلف بتدريسها معلمون داخل مواد مشتتة بصورة آلية فتتباعد القيم عن مجسدها.

هل يصح أن نعلن موت المعلم؟ فإن كان قد مات، فكيف أمكن بعثه، بعث المعلم المثال الحي الذي لا يعوض، لا المعلم الذي يمكن أن نخرج أشباهه من مدرسة تعليم المعلمين؟ كيف يمكن إنقاذ المعلم من تهديد الآلية في تكنولوجيا الاتصال والإعلام؟ نود أن نبين أن ذلك يكون بإحياء تعاليم المعلمين الأوائل[11]، ويبقى أمر الاختلاف حولهم قائما، أهم الأنبياء أم الفلاسفة؟ أهم فلاسفة

6- هذا لا يعني أن الدولة قديما لم تكن تتدخل في التعليم، ولكن تدخلها الآن أصبح له من الشمولية ما له.

7- وإن كانت الدولة الحديثة ذاتها قد استلهمت في تعليمها نماذج معلمين، كاستلهام نموذج فلاسفة الأنوار.

8- «L'écran peut enseigner, examiner, démontrer, interagir avec une précision, une clarté et une patience qui dépassent celle de tout instructeur humain». STEINER George, ***Maîtres et disciples***, traduit de l'anglais par Pierre-Emmanuel Dauzat, Gallimard, 2003, p.182

التغير الذي مس المعلم، تعدى إلى العلاقة التي بينه وبين المتعلم، فصارت العلاقة علاقة يضعف فيها الاحترام والإجلال ويغلب عليها الاستهانة والاستصغار.

9- يتحدث البعض عن تحول الدولة الحديثة، كما هو الشأن في فرنسا من دولة حاملة لقيم معينة إلى دولة تدبر تعدد نظم القيم، مما جعلها تستشير ممثلي الأديان للنظر فيما يعترضها من المشكلات الأخلاقية، ينظر ؛

WILLAIME Jean-Paul, «***ÉTAT, ÉTHIQUE ET RELIGION***», Cahiers Internationaux de Sociologie, NOUVELLE SÉRIE, (Janvier-Juin 1990), pp. 189-213.

10- ينظر محمد الصغير جنجار، «حدود الاختيار التوافقي وانعكاساته على منظومة القيم في المدرسة المغربية»، ضمن دفاتر التربية والتكوين، العدد 5، شتنبر 2011.

11- الأولية هنا ليست أولية زمنية، بل أولية قيمية، ويفضل أن يكون الإحياء إحياء لسير هؤلاء، مع العناية باحترام قواعد جمال الإنشاء القصصي.

العقل (الأنوار)، أم فلاسفة الريب (فلاسفة ما بعد الحداثة)؟ أهم العلماء بالمعنى القديم للعلم (فقهاء أو متكلمون أو متصوفة أو أدباء)، أم بالمعنى الحديث له؟ أهم العلماء أم غيرهم كالقادة والصناع ...؟

هل نكتفي بمؤسسات تعليم المعلمين؟ الجواب هو النفي، لأن تجسيد هذه القيم هو عمل أكبر من عمل المؤسسة التعليمية. إنه عمل المجتمع بقواه الحية، ولن تكون المؤسسة التعليمية سوى رافد من الروافد. وداخل المؤسسة التعليمية، قد يكون المبدأُ المعلم ذاته باعتباره نموذجا حيا مجسدا التجسيد غير الآلي للقيم، مؤثرا أكثر من تأثير المواد التي يدرسها، حتى وإن كانت هذه المواد تعاليم المعلمين الأوائل، أو مادة القيم ذاتها، وهي عبارة عن القواعد المستنبطة من هذه التعاليم. إن مما نقترحه إذن هو إحياء تعاليم المعلمين الأوائل، مع الفطنة بأن هذه التعاليم قد سبق تجسيد الكثير منها في المجتمع. يستحق أن يكون المجتمع أيضا من المعلمين الأوائل فأينما كان تجل حي لتعليمه في سلوك أفراده، اعتبرناه أفضل ما يمكن حصوله في مجال القيم. وهذا لا يعني الاستغناء عن تعليم القيم، أو عن تدريسها باعتبارها مضامين داخل مواد، أو مواد مستقلة.

يعين على بعث المعلم الذي هو مثال حي، استعادة وحدة العلم، ذلك أن من أسباب غلبة نموذج المعلم/الآلة تشعيب العلم وتحويله إلى مجرد صناعة تدرس قصد تحصيل الملكة المتعلقة بها ؛ فبالإضافة إلى التخصص الدقيق الذي ينبغي للمعلم إحكامه، وتحصيل الملكة الإبداعية فيه، ينبغي أن يكون الربط بين ذلك التخصص، وتخصصات أخرى، قصد تشكيل صورة شاملة عن العلم، وهو موحد حامل لمعنى ودلالة. ونذكر في الأخير، أن علم المعلم بثقافة المتعلم وواقعه من المعينات في جعل تعليمه مسددا، ونقله للقيم الحية التي يجسدها موفقا[12].

خلاصة

إعادة الوحدة للعلوم، وربط العلوم بالقيم، والعمل على تجسيد حي لها بإحياء تعاليم المعلمين الأوائل، أو الاحتفاء بتجسيدها السابق في سلوك الأفراد، ومن بينهم المعلم، هذا هو المبتغى. هل نتخلى عن المعلم/الآلة؟ لا ننسى أن تشعب العلوم أصبح قدرا، وأن استعمال تكنولوجيا الإعلام والاتصال صار ضرورة. على المعلم/الإنسان، الذي ينتظر منه سبق تجسيده للعلم الحي (العلم وقد توحد مقترنا بالقيم التي يجسدها تجسيدا حيا)، إن حُمِّل تدريس تخصص من التخصصات، أن يسعى إلى أن تتولد في المتعلم الملكة الإبداعية المتعلقة بذلك التخصص مستعينا الاستعانة الواعية بوسائل الاتصال التعليمية المتقدمة، وأن يشهد على أن المتعلم قد حصل تلك الملكة، وهذا ما لا تستطيعه الآلة[13].

12- من المفيد أيضا الوعي التاريخي بالقيم، أو العلم بما يمسها من التحولات عبر الزمن.

13- «***Aucun moyen mécanique, si expéditif soit-il, aucun matérialisme, même triomphant, ne saurait effacer l'aurore dont nous faisons l'expérience quand nous avons compris un maître***». STEINER George, Ibid, p.186.